

ابن تار السبويل

للكاتب الرقي غوغول
بقلم الأديب إبراهيم زين الدين

في وسط السماء تغمرها بالنور وبالسحر ...
نسى أندريه نفسه بين هذه الأشياء ،
ونجاة غطى السماء سحب حجبها عن عينيه
ثم انقضت الفيوم وبانت السماء أجمل مما
كانت

شبه له في ذلك الوقت أن مخلوقاً حياً
غريباً ظهر لمينيه ، فظن لأول وهلة أن هذا المشهد
هو من تأثير غفلته الأولى ، ففتح عينيه وحدث في
السماء ، فرأى حقيقة وجهها يقترب منه وينظر في
عينيه ، ورأى شعراً أشعث نافرأ من غطاء الرأس :
نظرات غريبة ووجه أسمر شاحب جملاء يستند
أنه فريسة كابوس وأوهام ، فتناول بندقيته بحركة
آلية وقال باضطراب : « من أنت ؟ إذا كنت من
الأرواح الشريرة فابتعد عني ؛ وإذا كنت رجلاً
فانك قد اخترت وقتاً غير لائق للمزاح : إذ ذهب
وإلا قتلتك من أول ضربة ! »

فما كان جواب الشبح إلا أن وضع أصبعه على فمه
طالباً السكوت والهدوء ... ألقى أندريه سلاحه
ونظر بانتباه إلى الشمر الأسود الطويل ، إلى العنق
والصدر المارين . فاذا بالشبح امرأة . ولكنها ليست
من بنات جنسه : وجهها أسمر وعليه آثار المرض ،
وجنتاها بارزتان وعيناها غائرتان . وكلما أطال
النظر إليها وجد فيها شيئاً له به عهد . وأخيراً
لم يسمع إلا سؤالها : « قولي من أنت ؟ يظهر لي
أني أعرفك ، أو شاهدتك في مكان ما ! »

— قالت : كان ذلك منذ سنتين في « كيف ! »
ردد بعدها أندريه « منذ سنتين في كيف ؟ ... »
مجهداً نفسه في استرجاع ما يمكن أن تميه ذاكرته

« حاصر (الزابورجيون) دوبنو إحدى المدن
البولونية يريدون الاستيلاء على أموال أهلها ومواشيهم ،
وقد سمعوا أن فيها مؤناً كثيرة . وهم إذا دخلوا
قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وأكلوا
الأخضر ، وأحرقوا اليباس ، وأهلكوا الزرع
والضرع ... ثم يتركونها قاعاً صفصفاً ... »
كانت المدينة كأنها غارقة في سبات عميق ، وكانت
سقفوها وجدرانها القوية وحصونها الحصينة تلمع
على أنوار النيران البعيدة

أخذ أندريه يتمشي بين صفوف القوزاق بينما
أخذت النيران التي حفر من حولها الحرس للنائمون
تخمد من وقت لآخر . نام الحرس بعد أن ملأوا
أجوافهم من طعام المساء بشهيتهم « القوزاقية »
وأطمأن أندريه إذ قال لنفسه : « من حسن حظنا
أننا لسنا نجاء عدد يخشى جانبه ، وأن ليس هناك
أحد يخافه (١) »

أخيراً اقترب من عربة تسلكها واستاق على
ظهره ، وجمع يديه تحت رأسه ، ولكنه لم يزم ؛ وتطلع
إلى السماء الممتدة فوقه فرأى النجوم الكثيرة ،
وأحس بالهواء الندي يداعب شعره ؛ وكانت النجوم

(*) من قصة للكاتب الروسي غوغول عنوانها « تاراس
بولبا »
(١) قوزاق تعلم أو عاش في « زابورجيه » في المدرسة
الحرية

إليه : وار كمي عند قدميه ، وقولى له إن له أما أيضاً .
فاذا ما تذكرها أعطاك ! »

واستيقظت مشاعر الشاب واستولت عليه بقوة :

— ولكن كيف جئت إلى هنا ؟ كيف ...
وأى طريق سلكت ؟

— اجتزت طريقاً سريعاً تحت الأرض !

— وهل يوجد نفق سرى تحت الأرض ... ؟

وأن ... ؟

— إنك لا تخون أبداً !

— أقسم لك بالصليب المقدس ... !

— هناك تنزل طريقاً منخفضاً وتغر بمجرى

الماء عند آخر الدغل

— وبعد ذلك نصل إلى المدينة ؟

— نصل إلى جانب المصد

— هلى نذهب حالاً

— ولكن ... قطعة الخبز

— حسن ؛ إجلسى هنا ؛ إبقى فى العربة ...

أو اضطجعى بداخلها فلا يراك أحد ، السكل نيام .

سوف أرجع حالاً ...

واقترب من العربة حيث تراكت المؤن بعضها

فوق بعض وهى مؤن فرقته

خفق قلبه ، وعاوده ما حرص على الاعتماد منه

طيلة تلك الأيام بنومه فى الصحارى فى الأيام الأخيرة ،

واقترب من حياة الحرب العابسة المظلمة ... عاودته

ذكرى امرأة من منزل رفيع ظهرت له كما تظهر

من قاع بحر مظلم ... ولملت فى مخيلته يداها الطاهرتان

وعيناها البراقتان وفهما الباسم الضاحك ، وشعرها

الجعد بلونه البندقي الجميل المسدل فوق كتفها

وعلى ثديها ...

من ذكريات « كيف » ... من دخوله إلى المدرسة
وما مر عليه ... ثم نظر إليها وصاح فجأة « أنت
التتريّة خادم النبيلة الصغيرة ابنة الحاكم ! »

— فدمدمت التتريّة قائلة : صه ! وهى تمد يديها

برجاء وابتهاال وخوف ... ثم رفعت رأسها لترى إذا

كان أحد أفاق على صوت أندريه ...

— قولى تكلمى ... لم وكيف أنت هنا ؟ أين

السيدة الصغيرة ؟ ألم تزل حية ؟ تكلمى ، أمرعى .

قال ذلك بصوت مخنوق من تأثير الشمور الداخلى

الذى كان يخالجه

— هى فى المدينة !

— فى المدينة ؟ وأحس أندريه بأن دمه يجمع

فى قلبه ... ولم كانت فى المدينة ؟

— ذلك لأن والدها هناك ، وهو لم يزل فيها

منذ سنة ونصف

— وبمعدن ... هل تزوجت ؟ ولكن تكلمى

كم أنت غريبة الأطوار ... ماذا تعمل الآن ؟

— إنها لم تذق طعاماً منذ يومين ...

— ماذا تقولين ؟

— لم يبق شىء عند أحد من سكان المدينة .. حتى

ولا كسرة خبز . منذ زمن طويل والناس لا يجدون

ما يأكلونه غير التراب

بقى أندريه سامناً لا يسدى حركة ... إلى

أن قالت التتريّة : « عرفتك السيدة الصغيرة من

بين جميع الزابورجين من أعلى القلمة وقالت لى :

إذهبي وقولى لهذا الفوزاقى النبيل أن يأتى لأراه ...

وإذا لم يمد يذكرنى ، فاطلبى منه كسرة خبز لأجل

والدقى المسكينة ، لأنى لا أريد أن أرى أى تموت

بين يدي وأحب أن أموت قبلها ... تضرعى

وبعث في مخيلته كل تقاطيع وجهها بانسجام جميل ...

كلا لم تنطق هذه الآثار ولم تمنح من مخيلته ، لكنها طات جلية في قلبه تملو عليها الحياة الصخبة التي سعى إليها ، ولكن كثيراً ما فكر فيها ، وكثيراً ما كان يصطرب من تأثيرها في غفواته ... وكثيراً ما بقي مستلقياً بعد استيقاظه ، لا يعرف السبيل إلى إيضاح عواطفه وإبانتها

تابع سيره ودقات قلبه تقوى وتتسارع لذكره أنه سوف يلقاها ، واضطربت ركبته ... ولما وصل إلى العربات نسي كل ما جاء من أجله . نسي ما يجب أن يفعل . . . حمل يده إلى رأسه مجتهداً في تذكر ما يجب عليه عمله ...

أخيراً اختلج وأخذته رعشة خوف ، وخجاة جاءتة الفكرة ... إنها سوف تموت جوعاً ...

أتى بنفسه على العربة وأخذ عدة أرغفة من الخبز الأسود وضعها تحت إبطه ... ولكنه فكر: هل يكون هذا الخبز - وهو كاف (الزابورجي) قوى - جنباً متنافياً مع مزاجها وطبيعتها اللطيفة ؟ تذكر عندئذ أن الفائدة عتف الطاهي ليلة أمس لأنه خبز دفعة واحدة مقادير كبيرة من الطحين ، إذا لبق ما يكفي ثلاث مرات ...

فتأكد من أنه سوف يجد ما يلزمه . أمسك بقدر والده الصغير واتجه نحو طاهي الفرقة الذي كان نائماً بالقرب من قدرين عظيمين يسع كل منهما عشرات الأرتال ، ولم يزل الرماد تحتهما ساخناً

أتى نظرة على القدرين فلم أنهما فارغان ، نظر إلى قدور الفرقة الباقية ... لا شيء فيها أيضاً ... فذكر بالرغم منه مثلاً سائراً : « الزابورجيون

كالأطفال ، إذا وجدوا شيئاً قليلاً أكلوه ، وإذا وجدوا منه شيئاً كثيراً لم يبقوا على شيء »

ما العمل ... ؟ تذكر أن في عربة والده كيساً من الطحين الأبيض وجدوه عند ما سلبوا أحد الأديرة ... اقترب من عربة والده ، ولكن الكيس لم يكن فيها . لقد وضعه أخوه أوستاف تحت رأسه ومدد باقي رأسه على الأرض ... وملأ السهل من شخيره ...

أمسك أندريه الكيس بيده وسحب بقوة جمعت رأس أوستاف برنطم بالأرض وبفتح عينيه بألم من أثر الضربة التي أصابته فأخذ يصيح بكل قوته : « أمسكوا هذا المفريت البولوني . اقبضوا عليه ، أمسكوه ، أوقفوا الحصان ! » فصرخ أندريه مأخوذاً بالعرب والخوف : « أسكت وإلا قتلتك ! » ولم يكن أندريه بحاجة إلى مثل هذا التحذير لأنه سكت من نفسه وعاد إلى مكانه من الأرض ، وعادته شخيره يملأ السهل ويهز الأعشاب التي نام عليها

أجال أندريه نظره في كل الجهات خوفاً من أن يكون صوت أوستاف قد أيقظ أحداً من القوزاق

لم ينهض غير رأس واحد من الفرق المجاورة ، فأتى نظرة واحدة على الجوع النائعة ثم ترك نفسه إلى الأرض

انتظر أندريه دقائق قليلة دون حراك ثم حمل مامعه لم تزل التنرية مستلقية في العربة تنفّس بصعوبة . ولما اقترب منها أندريه قال لها : « انهضى ، السكل نيام ... لا تخافى ... ولكن لا يمكنك أن تحملي شيئاً مما أحمل ، وليس في إمكاني أن أحملها كلها .

طويل على انبلاج الفجر ، لكن لم يطرق سمعها صياح
ديك في جهة من الجهات ؛ لا في المدينة ولا في
الجهات المجاورة التي صارت كالصحراء ... لأنه لم
يبق ديك واحد منذ زمن بعيد

اجتازا جدول الماء على جزع شجرة ثم
وصلا إلى الضفة الثانية ، فوجداها أعلى من التي
تركاها كأنها سهل منحدر من طرف جبل ...

هذه الجهة من المدينة آمنة ويمكنها المقاومة ،
ولو خرج رجال الحرس لما رؤى واحد منهم ...
وكذلك يتعالى سور الدبر من الجهة الثانية ويحميها
كانت الضفة الثانية مملوءة بالحشائش البرية ،
كثيرة الوعورة يفصلها عن الماء قصب كثير
يقارب علوه طول الرجل ، وعند مشرف الوعورة
بقايا سياج حدد فيها مضي البساتين والفيط ، ومن
أمامها تماثل أوراق القرطب^(١) الكبيرة ووراء
السياج نبت الموسج البري الشائك ... وكذلك
نبت العباد^(٢) في البقية الباقية من الأرض

عند هذا المكان نزع التتيرة حذاءها المرتفع
الكعب وسارت عارية القدمين ، رافعة ثوبها في
حذر وتحفظ لأن المكان موحل ومليء بالماء ...
وتوقفا عندما ولجا طريقاً بين القصب المرتفع ووجدا
فتحة لا تزيد على فتحة الفرن

أحنت التتيرة رأسها وسارت ، وتبعها أندريه
مخني الظهر ما أمكنه ليقدر على المرور بحمله .
وسرعان ما دخلا في ظلام داس

استطاع أندريه التقدم بصعوبة في هذا المر

قال ذلك ثم حمل على ظهره كيسه وصرّ بالقرب من
عربة عليها كيس من الدرة حمله أيضاً ووضع تحت
إبطه الخبز الذي أراد أن تحمله التتيرة . وسار بين
صفوف القوزاق منحني الظهر خائفاً بين حين
 وآخر أن يستيقظ أحد

— أندريه : قال الأب بولبا في الوقت الذي مرّ
فيه ابنه بجانبه . فتوقف أندريه عن السير وخفق
قلبه وأخذ يرجف ثم أجاب بصوت منخفض :
« ماذا ؟ »

فقال له أبوه : ممك امرأة ؟ قسماً سوف أضربك
عند ما أنهض ، إن النساء لا يجابن لك شيئاً من الخير ،
قال ذلك وانكأ على سرقته محدقاً وجه الدثرة بغطائها
بقى أندريه واقفاً نصف ميت لا يملك القوة على
النظر إلى والده . ولما رفع نظره إليه وجده قد نام
ورأسه بين يديه

رسم إشارة الصليب وسرعان ما زال عنه الخوف
ولما التفت ليجث عن التتيرة وجدها واقفة
بالقرب منه كتمثال حجري مظلم ، ملتفة بردائها ،
وشمع نار بعيدة تنير عينيها ، فوجدها كديتين
قاسيتين أو كميني ميت . أمسك بطرف ثوبها
وسارا ... وكل منهما باقى نظرة بمد نظرة وراه
حتى وصلا إلى أرض فيها منحدر كأنه حفرة ،
يجرى في أسفله جدول ماء صغير ، وعلى جانبيه الحجارة
والحصى ...

بلغا المنحدر واختفيا عن الأنظار . ولما نظر
أندريه إلى ما حوله وجد جداراً يملو قامة الرجل
نبتت في أعلاه بعض الحشائش البرية ... وفوقهما
يلمع القمر كأنه سجن ذهبي ... وهب عليهما هواء
خفيف من السهول المشوشة أعلمهما أن لم يبق وقت

(١) Bardane — نوع من النباتات

(٢) Tournsol — عباد الشمس

ليترك لرفيقته الوقت اللازم لترتاح من آلامها
التي سببتها لها قطعة صغيرة من الخبز ابتلعها
قالت بصوت منخفض وهي لا تبدي حراكاً:
« شكر الله ، هاقد وصلنا ! »

واقتربا من باب حديدي كبير رفعت يدها
لتطرقه فلم تسمعها قواها ، فطرق أندريه الباب
مكانها مرات انشرب بعدها صدى الصوت ،
مما دل على طول المسافة وراء الباب ؛ ثم تغير الصوت
عندما اصطدم بحاجز ، وبعد دقيقتين سمع وقع
أقدام وحركة المفاتيح في الباب ثم خرج عليهما
راهب بيده شمعة وظل واقفاً على المدرج

توقف أندريه بالرغم منه عند رؤيته راهباً
كاثوليكياً يبذر النفور بين القوزاك ... الذين
يعاملونه معاملة أقل إنسانية من معاملتهم اليهود
وتوقف الراهب أيضاً ورجع إلى الورا عند
رؤيته (قوزا في زايبورج) ... لكن كلمة غير
واضحة فاهت بها التتريه طأنته فأضاء لها الطريق
وأوصاهما بمد أن أوصد الباب إلى أعلى الدرج حيث
وجدنا نفسيهما بين أروقة الكنيسة المظلمة

وقف بالقرب من المذبح حيث علقت الشمعدانات
الكبيرة وأضيئت بالشموع ، ثم جثا على ركبتيه
وأخذ يصلي بخشوع . وبجانبه جثا شابان يرتلان
الألحان ، وعليهما ثياب خضر فوقها قمصان بيضاء
مزركشة الجوانب والأطراف ، ويبد كل منهما
مبخراً ... يصلون بخشوع للمعجزات والخوارق
الالهية ، يصلون لأجل تخليص المدينة واسترجاع
شجاعته ، يصلون لله ليهبهم الصبر ويعمد عنهم
الأرواح الشريرة التي توسوس لهم بالشكوى وتحثهم
(٧)

المظلم وراء التتريه جاراً وراءه أكياس الخبز قليلاً
ووصل إلى النور ؛ قالت التتريه : نحن نقرب من
المكان الذي وضعت فيه المشعل

وكذلك كان . بدأت جدران الأرض المظلمة
تضاء بنور شاحب ، ثم وصلا إلى ممر يظهر لأول
وهلة كأنه معبد ، فيه طاولة صغيرة مسندة إلى
الحائط على هيئة المذبح ، وفوقها صورة المذراء
والقديسين ، تكاد لا تظهر من شدة كمود لونها .
وعلق بالقرب من هذه الأشياء قنديل فضي اللون
يضيء هذه الأشياء

انتحت التتريه ورفعت يدها القنديل الذي
تركته من قبل ؛ ثم حركت النار بملقط بجانب
القنديل زاد الشماع وقوى ، ثم سارت ورفيقها ،
يحفهما نارة نور قوى ، ونارة بكنفهما ظلام دامس .
وظهر التباين القادح بين وجه الشاب المعتلى صحة
ونشاطاً وبين وجه التتريه الأصفر الشاحب ...

أصبح الممر أعرض من ذي قبل ، وتمكن أندريه
من الوقوف على طول قامته ، ولاحظ وهو يسير
جدران النفق التي ذكرته بممرات « كيف »
الأرضية قالت الشبه بينهما قريب جداً . ترى
الحفرات في الجدران والأرض ، والقبور منتشرة
في كل مكان ؛ وترى أيضاً في بعض الأماكن بقايا
بشرية تأثرت بالرطوبة وصارت رقائماً

يظهر أن في هذا المكان رجالاً قديسين هربوا
من صخب العالم وحسراته وضلاله ...

كانت الرطوبة قد تمكنت من بعض الأماكن ،
وانتشرت بقع الماء تحت أقدامهما

وقد اضطر أندريه مراراً إلى التوقف عن السير

عليها بالدروع في أعينهم ، وتسلبهم شجاعتهم أيام
المصائب الأرضية

بعض نساء كالأشباح ركنن مستندات إلى
الكراسي ووضعن رؤوسهن بجانب القاعد الخشبية
السود .

وبعض رجال اتكئوا على الأعمدة القائمة في
وسط القاعة وركعوا بحزن وأدوا صلاتهم بخشوع
أصاب شعاع الصباح الضئيل النافذة ذات
الزجاج الملون ، فأرسلت أنواراً على شكل صرعاتها
زرقاء وصفراء ، وغيرها من الألوان . فأثيرت
الكنيسة فجأة ، وظهر المذبح بالرغم من شدة سواده
محاطاً بالأنوار الساطعة ... وشاهد أندريه بدهش
من ركنه عظمة النور ... »

تعالى صوت الأرغن في ذلك الوقت وملاً
الكنيسة الفسيحة ، وأخذ يقوي من وقت لآخر
ويتعالى كثيراً ويتحول إلى قصف رعد عظيم ، ومنها
يتحول إلى لحن موسيقى ناعم يتعالى من وقت لآخر
تحت الأروقة ثم يتغير من حال إلى حال حتى يصبح
حاداً يذكر بأصوات الفتيات الصغيرات ... ثم يعود
إلى القصف والرعد ... ثم يسكت

وبعد ذلك ارتفع الصوت من جديد وانتشر
بين الأروقة والأعمدة ، وأندريه فه نصف مفتوح
يصنى إلى هذه الموسيقى المذبة

أحس عندئذ أن أحداً يمسك بطرف ثوبه :
« لقد حان الوقت » قالت التتيرة ذلك واجتازا
الكنيسة من غير أن يلحظهما أحداً واطلا على ساحة
بالقرب منهما

منذ زمن طويل والفجر يضيء السماء بلونه
الأحمر ، وكل شيء يملأ ظهور الشمس . كانت

الساحة المربعة الشكل خالية تماماً ولم يزل في وسطها
بعض ماضد سود دلت على أنه كان هناك منذ
أسبوع تقريباً أسواق البلد ، والطريق التي لم تنظف
منذ ذلك الحين كانت مملوءة بالأوحال الجافة

كانت الساحة محاطة من كل جوانبها بمنازل
صغيرة مبنية بالحجارة أو الآجر مؤلفة ، من طابق
واحد وحولها الأعمدة الخشبية المرتفعة ، وكلاهما من
صنع أصحابها وسكانها وهي شبيهة بمنازل ليتوانيا
وبولونيا . كانت كلهما مغطاة بسقوف على غير انتظام
وفي بعض جدرانها نوافذ صغيرة لانارتها

وعلى أحد الجوانب ظهر منزل على غير طراز
النازل في المدينة ، عرف فيه (فندق المدينة) أو
غيره من دور الحكومة . كانت تلك البناية مؤلفة
من طبقتين ، وفي أعلاها جناح خصص للحراسة ،
وعلفت ساعة كبيرة في الحائط

ظهرت الساحة كأنها ميتة
لكن أندريه سمع أنيناً ضعيفاً منبعثاً من الجهة
الثانية ...

حدق في المكان فرأى جماعة من ثلاثة رجال
مستلقين على الأرض بلا حراك تقريباً ، وحدق
النظر فيهم أكثر ليتبينهم إذا كانوا أمواتاً أو أحياء
وبينما هو سائر اصطدمت قدماء بجسم ممتد
على الأرض : كان ذلك جسم امرأة يهودية على
ما يظهر — ما تزال شابة بالرغم من آثار الضعف
والهزال البادية على وجهها مما يمنع تقدير سنّها .
وضعت تلك المرأة على رأسها غطاء من الحرير الأحمر
وزينت قبعتها بجواهر — ربما كانت زائفة —
وأسدلت بمض شعرها الجمعد على عنقها الجاف
المتفخ الأوداج

يمكنه أن يأكل الحيوانات المحرمة عنه . كل شيء يصبح صالحاً لطعامه ! »

— لقد أكلوا كل شيء ! أكلوا القطعان والحيوانات بأجمعها ، وإنك لا تجد في المدينة لاحصائاً ولا كلباً ولا هراً حتى ولا فأراً

— ولكن كيف يمكنكم وأنتم لا تجدون ما تأكلون أن تدافعوا عن المدينة إلى اليوم ؟

— نعم ! من الممكن أن يسلم الحاكم المدينة ، ولكن القائد الذي في «بوزداك» أرسل البنارسالة مع الحمام بأمرنا ألا نسلم المدينة ، وأنه عارج نحونا مع جيش لينقذنا ، ولكنه ينتظر لذلك قائداً آخر ليتمكن من الحضور في وقت واحد ... ونحن في انتظارها من وقت لآخر ... ولكن ها نحن قد وصلنا إلى البيت ...

رأى أندريه المنزل من بعيد ليس هو فاذا كغيره من منازل المدينة ، يظن أن مهندساً إيطالياً شيده على طابقين بقرميد دقيق جميل . نوافذ الأول متوجة بشكل جميل مرتفع ؛ والثاني مؤلف من أروقة وغرف كبيرة ، وتظهر من بين الأعمدة أسلحة الدالة المعلقة على الجدران

يصل سلم القصر العريض إلى الساحة ، وعند أسفله وقف الحرس حاملين سلاحهم الأبيض بيد ، وممسكين بيدهم الأخرى رؤوسهم المنحنية على صدورهم ، وهم في موقفهم هذا أشبه التماثيل منهم إلى الناس

لأنهم لم يناموا ولم ينفلوا أبداً ، ولكنهم لا يشمرون بما حولهم حتى لم يروا اللذين صرا أمامهم وعند أعلى السلم وقف جندي بشيابه الثقيلة

وانطرح بالقرب منها طفلاً ممسكاً نديها بشدة قارصاً إياه بين أصابعه بحركة غير إرادية ... ولا يجد فيها لبناً ... لكنه لم يبك ولم يصرخ ... ولا يمكن الحكم على حياته إلا بحركات بطنه الذي ينتفخ ويهبط يبطء لافظاً من بين شفثيه أنفاسه الأخيرة تابعا سيرهما في الشارع ؛ لكنهما توقفا فجأة أمام رجل هائج تقدم منهما عند رؤيته حمل أندريه الثمين ، وارتعى عليه كالنمر الهائج وأمسك بتلابيه وصاح : « خبز ! » ولم تباعده قواه أكثر من ذلك فأبعده أندريه عنه فوقع على الأرض ، وأخذته الشفقة عليه فألقى إليه بلقمة خبز ارتعى عليها الرجل كالكلب الهائج وعضها بين أسنانه وابتلعها وهو يرسل معها أنفاسه الأخيرة ... بين هياجه وتشنج أعصابه من تأثيرها

خرج الناس من منازلهم طائنين أنهم بمعلوم هذا ربما تنزل عليهم معونة من السماء ترد إليهم قوامهم وأمام منزل جلست عجوز القرفصاء ورأسها بين يديها فلا يمكن معرفة ما بها . هل هي فائمة أو منغى عليها أو هي جالسة بلا حراك إلى الأبد .. وظهر من سقف أحد المنازل جبل مربوط في أسفله جسم رجل مدلى لم يتمكن ذلك المسكين أن يصبر أكثر مما صبر على هذه الآلام ، فعجل لنفسه الموت بانتحاره ...

لم يتمالك أندريه نفسه عند رؤيته هذه الأشياء فسأل رفيقته : « هل حقيقة لم يجد هؤلاء الناس ما يمكنهم به حياتهم ؟ عند ما يصل الرجل إلى حالة لا يمكن معها أن يعمل شيئاً ، ولا يجد ما يأكله بأية طريقة كانت ، يمكنه أن يتغذى بكل شيء ،

العدراء فوق طاولة صغيرة على حسب عادة الكاثوليك،
وعند أسفل الطاولة وضع كرسي صغير للركوع عليه
وقت الصلاة

وجد نفسه في الغرفة ، ولكن ليس هذا
ما يبحث عنه

أدار وجهه إلى الجهة الثانية ، فرأى امرأة
كأنها مثلجة ومتصلبة بوضع غريب ، وظهرت
كأنها تهم الوقوع عليه ، ثم توقفت فجأة وهو أيضاً
بقي واقفاً مشدوهاً ...

لم يتخيل أنه سيلقاها على هذا الشكل .
ليست هي ليست التي عرفها ورآها من قبل ،
ليس فيها شيء يشبهها ... تلك كانت عذبة وجيلة
أكثر من هذه ، وكان لها مزايا لانهاية لذكرها
ووصفها . أما هذه فهي جيلة ، ولكنها تشبه لوحة
اتهى الرسام من آخر ريشة فيها

كانت فتاة القديمة مرحة شبيهة غير مضطربة .
أما هذه فهي جيلة ، وهي امرأة بكل ما فيها من لطافة ،
وظهرت في عينيها الطوبائين علامات التألم وطفرتا
بالدموع التي لم يكن لها الوقت الكافي لتجف ، فظهرتا
رطبتين لامعتين نافذتين إلى القلب ، فالصدر والقلب
قد حافظا على اعتدالهما وجمالهما

وشعرها الذي كان فيما مضى مجهداً مجماً أصبح
الآن مرسلاً . خصلة منه على ظهرها والثانية على
على كتفها وذراعها وصدرها

لقد طرأ عليها تغير عام . واجتهد أندريه
أن يتذكر شيئاً في فتاته الأولى يشابه التي أمامه
ولكن عبثاً حاول . لم تبق في ذاكرته إشارة واحدة
تنطبق على هذه

الغالية حاملاً في يده كتاب الصلاة . وعند ما مر
أندريه بالقرب منه رفع إليه نظرات دهشة ، لكن
التتريه قالت له كلمة رجع بعدها نظره إلى كتاب
صلاته ...

دخلا أولاً غرفة فاذا هي متسعة الأركان متباعدة
الجوانب كأنها قاعة استقبال ، مليئة بالجند المسندين
إلى الجدران على أوضاع مختلفة ، والخدم والحرس
والسماة وغيرهم من رجال الخدمة اللازمين لشرف
رجل بولوني عظيم ، أكان رجل حرب أم مطلق
سيد كبير ؟

في وسط القاعة شجرة على وشك الانطفاء ،
واثنان تضيئان في شمسديهما الكبير بالرغم من
أشعة الصباح التي دخلت من النافذة الكبيرة
ترك أندريه هذه الغرفة واتجه نحو باب حديدي
مزدان بأنواع الأبسط فأمسكته التتريه من يده
وأشارت بيدها إلى باب صغير في آخر الجدار
اجتاز هذا الباب إلى ممر ضيق ثم إلى غرفة
أخذ يتفحصها بدقة . وكانت الأنوار التي تدخل
من فتحاتها تنتقل من أثاث إلى آخر وتقع على
قطعة هندسية أو لوحة فنية أو ستار أحمر

هنا قالت له التتريه أن ينتظر ، وفتحت باباً
يطل على غرفة ثانية كانت مضادة بنور الموقد ...
سمع دمدمة ثم صوتاً خافتاً جملة يرتجف ... ورأى
من خلال الباب خيال فتاة يمر بسرعة ، رافعة يدها
شعرها الطويل

خرجت التتريه ثانية وسمحت له بالدخول ، ولم
يذكر أندريه كيف دخل ولا كيف أغلق الباب وراءه
ولا كيف وجد نفسه وسط الغرفة

وجد غرفة منارة بشمعتين بالقرب من صورة

نظرت الفتاة إلى الخبز ثم رفعت بصرها إلى
أندريه وكان في نظراتها معان كثيرة ، وهذه النظرات
التي كانت تقول بالاستحيل وعدم القدرة على إظهار
المواطف المتبقية ، فهمها أندريه وأدرك معناها
أكثر من إدراكه أي حديث آخر

ونجاة تذكر أنه أصبح حراً ؛ وأن حركاته
وشعوره لم يعودا مقيدين كما كانا من قبل ،
وتحفظت نفسه للكلام ، وفتح فيه يرد أن يرسل
أقواله كالسيل النهر ...

لكن الفتاة الجميلة أدارت رأسها نحو التتربة
وقالت لها : وأى ؟ هل أحضرت لها شيئاً ؟

— هي نائمة

— وأبي ؟

— قدمت إليه الطعام وقال إنه سوف يأتي

بنفسه لي شكر الفارس

وتناوات الفتاة قطعة من الخبز حملتها إلى فمها
بين أصابعها الدقيقة ، ونظر إليها أندريه وهي تقطعها
بأسنانها ... ونجاة ذكر ذلك الرجل الذي لقيه في
الطريق وهو يكاد يموت جوعاً ، وذلك الذي أسلم
الروح وهو يزدرد اللقمة التي ألقاها إليه

علت وجهه صفرة ثم أمسك بذراعيها وصرخ :

« كفى ! لا تأكل أكثر من ذلك . صر عليك زمن
طويل لم تذوق طعاماً . وربما سبب لك الخبز ضرراً »

تركت يدها تقع ووضعت قطعة الخبز ثم نظرت
إلى عينيه بهدوء نظرة الطفل ، ولم تنطق بكلمة
لا يمكن لمنحت المثال ولا لريشة الرسام ولا
لفعل مهما قوى أن يعبر عما تكنه نظرة فتاة

وبالرغم من أنها لم تحافظ على جمالها القديم فقد
زادها اصفرارها جالاً عن ذي قبل ، جالاً لا يقدر
ولا يقارن

وشعر أندريه بخوف واحترام في قلبه وبقي
لا يبدى حراً كما . وهي أيضاً بقيت متأثرة بمشاهدة
الشاب القوزاق الذي ظهر لها في أبهى صورة لجمال
الرجل الشاب وقوته . وعلى الرغم من سكونه فقد
تأجج صدره بشتى الموامل ، ولمت عيناه يبرق
الشدّة ، وتجمع حاجباه على شكل نصف دائرة فدلا
على جرائنه وإقدامه . ولمت عيناه بقوة وكذلك
شارباه السوداء والذنان يشبهان الحرير

— كلا ، ليس لدى وسيلة يمكنني أن أشكرك بها
أيها الفارس النبيل . قالت ذلك وصوتها الفضي
يتهدج ... إن الله وحده يستطيع أن يكافئك ... ليس
ذلك في مقدوري ، أنا المرأة الضعيفة ...

وخفضت عينيهما وحجبتهم تحت جفنيها
المسلحين بأهداب طويلة كالسهم ... ونكست
رأسها واصطبغ وجهها بحمرة خفيفة

لم ينبس أندريه بكلمة ... أراد أن يظهر ما يضر
أراد أن يتكلم بتلك القوة والحرارة اللتين في
قلبه ولكنه لم يفلح ، وأحس بشيء يمسك شفتيه
ويحبس صوته

أحس بأن ليس له ، وهو الذي انتظم في الحياة
المسكينة الحربية وتعلم في المدرسة ، أن يجاوب في
مثل هذه الظروف التتربة

عندئذ دخلت التتربة الغرفة وقد قطعت الخبز
الذي أحضره الفارس إلى قطع صغيرة وأحضرت
في صحيفة من فضة وضمتها أمام سيدتها

أحنت الفتاة رأسها إلى الأمام وألقت شعرها إلى الوراء وفتحت شفيتها ونظرت إليه طويلاً ثم أرادت أن تقول شيئاً ، ولكنها توقفت فجأة وتذكرت أن أمامها شاباً قوزاقياً له هدف معين وله أب وإخوة ، وكل أهله ومواطنوه واقفون وراءه ناظرين ... ما أظلم أولئك القوازيق الذين يحاصرون المدينة ! وامتلأت عينها بالدموع فأمسكت مندبلها الحريري وألقت على وجهها ... أما هو ففشت عينيه سحابة

بقيت كذلك برهة ورأسها الجليل إلى الوراء وشفها السفلى بين أسنانها العاجية كأنها أحست ذبابة سامة . ولم ترفع المندبل عن وجهها حتى لا يلاحظ الآلام التي تكابدها

قال لها أندريه : قولى كلمة واحدة ... ؛ وأخذها بين ذراعيه وأحس بنار تسرى في عروقه ، وضغط على اليد التي بقيت بلا حراك بين يديه ... لكنها ظلت ما كنه لا ترفع المندبل المسده على وجهها ولا تنأى بحركة فقال :

— لماذا أنت هكذا حزينة ؟ قولى لماذا أنت حزينة ؟

فألقت المندبل جانباً ورفعت خصلات الشعر التي سالت على عينيها وأخذت تنطق بكلمات ممزوجة بتهديدات في صوت ضعيف شبيه بالهواء المنبعث آخر النهار في الأصقاع الممتدة وأكوام القصب الترامية عند مجارى المياه ؛ أصوات خفيفة ترتفع مدمدمة ، ويقف السافر يصغى إليها بالأم شديدة ... لا يشعر

صرخ أندريه وهو يمتلئ قوة روحية وعاطفه قلبية : تاريتزا^(١) ماذا تريدن ، ما يلزمك ؟ صربنى أن أعمل شيئاً لا يقدر على عمله الرجال اطلبي منى المستحيل امسرعي إلى إنجازه . اذهب إلى الموت ، والموت في سبيلك عذب شهي لدى

عندي ثلاث مزارع ، ونصف قطمان والذى هم ملكي ، وكل ما أحضرت والدتي لوالدي ، وما نخبي له أيضاً . كل ذلك لى ، وعندى أسلحة ليس لأحد من القوزاك مثلها

إني أخرج عن هذه الأشياء . أتى أترك كل ذلك : أرميه ، أحرقه ، ألقه في الماء عندما تلفظين كلمة واحدة ، بل وأقل من كلمة : عندما تحركين حاجبك الأسود الدقيق . ولكني اعلم أن عزري هذا ربما كان جنونياً . هل عبث كل ذلك ؟ ... أو ليس لى الحق وقد أمضيت حياتى في (زابوروجيه) أن أنكم أمامكم كما يتكلم الناس أمام الملوك والأمراء ؟ أرى أنك مخلوقة إلهية ، تختلفين عنا تمام الاختلاف ، ولانشابهك إحدى نساء الأشراف ولا بناتهن ... نحن لسنا صالحين لنكون عبيداً لك ، فقط وملائكة السماء وخدمهم يصلحون لخدمتك ! »

بقيت الفتاة مأخوذة بماطفة سامية لا تنطق بكلمة مصغية كلام الشاب الصريح الخارج من قلب صاف نقي كالرآة تبين فيها روح الشاب الناجحة ...

(١) كلمة روسية معناها ملكة صغيرة

بهذه الأحاديث تمزق قلبي وتزيد في حرارة ما قدر لي،
وأن أسف على حياتي الشابة الأولى . . . وأن أرى
قسوة الموت، وأن أبغضك وأكرهك وألعنك أيها
القدر . . . اغفرى خطيئتي ومذلتى أيتها الأم الإلهية
المقدسة »

وعند ما سكنت ظهرت على وجهها علامة غير
منتظرة، كل ملامح وجهها تكلمت، وكل شيء
فيها: من جبهتها المنهكة وعينيها المليئين بالدموع
التي تسيل وتبرد وتجف على خديها المنتفخين قليلا
كل شيء كان يقول: «لا سعادة في هذا الوجه!»
— قال أندريه: لم يسمع أحد بمثل هذا في العالم
بعد. إن من المستحيل أن يكون ذلك. إن من
المستحيل على أجل امرأة في العالم أن تتحمل مثل هذه
الآلام، إنها لم تخلق إلا ليركع أمامها المحب كما
يركع أمام تمثال العذراء . . . كلا، لن تموت.
أقسم لك بيوم ميلادي وكل شيء عزيز على
في العالم أنك لن تموت. وإذا قدر ذلك ولم
يمكن تجنبه لا بالقوة ولا بالصلاة ولا بالإرادة
القوية، فلنمت معا، ولا كن أول من يموت تحت
قدميك

— فقالت له وهي تحرك رأسها بهدوء: لا تخدع
نفسك ولا تخدعني، أنا أعلم أنك ذلك هو
شقاؤ الأعظم، أنا أعرف أن من المستحيل عليك
أن تحبني. أنا أعرف واجبك وإيمانك: أبوك
وإخوانك ووطنك كلهم يدعونك، أما نحن فلسنا
الأعداءك . . . !

— فقال لها: وماذا يعني من أسر أبي
وإخواني ووطني؟ ثم ونهض بقامته الطويلة

بالنهار الذي يولى . . . ولا بالأغاني البهيجة المتصاعدة
من أفواه الفلاحين المائدين من أعمالهم في الحقل
— ألسنت جديرة بمحان دائم؟ أليست شقية
تلك الأم التي وضعتني في هذا العالم؟ هل قدر لي أن
أحيا حياة مرة؟

ألسنت أنت الباعث على آلامي أيها القدر القاسي؟
لقد وضعت تحت قدمي أعظم رجال البلاط وأغنام
وأشرفهم، وكلهم من الملاك والمثرتين، وكلهم
كان يتمنى أن يحبني؟ وكلهم حسب حبي
فوزاً عظيماً له، ولم يكن على إلا أن أشير إشارة
صغيرة حتى يصبح أكثرهم مالا وأجملهم وجهاً
وأرفعهم حساباً زوجاً لي

عجيب أمرك أيها القدر القاسي، لم تجعل قيادي
لأحد من رجالنا ولكنك جعلتني أسيرة
لغريب . . . لعدو . . .

لا شيء سبب أيتها الأم الإلهية المقدسة^(١) ومن
أجل أية خطيئة تبغينني هكذا بدون شفقة ولا رحمة؟
لقد مضت أيامي رغيدة طيبة، لا أتناول
طعامي إلا في أئمن الآنية، ولا أشرب خموري إلا
في كأس مترعة . . . فلم تبدل كل هذا؟ الأجل أن
أموت ميتة أفقر رجل في المملكة؟ ولم يكف أن
قدر لي مثل هذا الحكم. لم يكف أنني قبل أن أموت
يجب أن أرى أمي وأبي على شفا حفرة من الموت
من المذاب أشده. كل ذلك لم يكف، وأهلي يريدون
تسليم المدينة التي أوقع ثمنها حياتي عشرين مرة . . .
أوجب على وأنا أقرب من نهايتي أن أرى . . . وأسمع
أحاديث حب لم أسمع بمثلهما من قبل أبداً، وأن أشعر

أحضروا خبزاً وطحيناً وشميراً ، وقد أحضروا معهم بعض أسرى الزابورجيين ، لكنهما لم يسمعا شيئاً ، لا هي ولا هو ، ولم يعرفا عن أى رجلنا تتكلم التربة ولا عن أى أسارى ...

أما أندريه فلم يعد يشعر بغير الشفتين المطرتين اللتصقتين بجمده ، والشفتين المطرتين تقابلته بالمثل . وفي هذه القبلات المتبادلة شعر أندريه بما يحق للرجل أن يشعر به ولو مرة في حياته « ... لقد ضاع ذلك القوزاق ، وأضاع فروسيته القوزاقية . إنه لن ير بعد اليوم « زابورجيه » أبداً ولا مزارع والده ولا كنيسة الرب

وكذلك « أوكرانيا » ، إنها لن ترى بعد اليوم أشجع أبنائها الذى أخذ على عاتقه الدفاع عنها أما الأب « بولبا » فقد جز شعره الأبيض من خجله ، ولعن الساعة التى رزق فيها مثل هذا الابن براعقهم زبده البرية

كشجرة الحور عند أطراف الغدير : وإذا كان الامر كذلك فليس لى أحد ، ليس لى أحد أبداً ... كمر ذلك بصوت عال محركا يده حركات رجل قوزاق عنيد مصمم على رأيه

... من قال إن أوكرانيا هي وطني ؟ ومن أعطاني إياها وطناً ...؟ الوطن هو الخير الذى تبحث عنه أرواحنا ، وهو أعز ما لديها . وفوق كل شيء وطني هو أنت ، هاك وطني وساحله . ساحل ذلك الوطن بين حنايا قاي ، ساحله إلى اليوم الذى تحين فيه ساعتى ، وسوف نرين إذا حاول أحد القوزاق أن يبتزعه من هنا ...

وكل ما لدى كل ما أملك ، أيمه ، وأحرقه ، ألقيه في الماء من أجل هذا الوطن !

ظلت الفتاة برهة مأخوذة بكلماته ، كأجل تمثال ، تنظر إلى عينييه ، ثم أجهشت بالبكاء وارتعت عليه ، وأحاطت عنقه بذراعيها ، كأجل امرأة لها قلب كبير خلقت للحوادث الكبيرة ، وظهرت بذلك المظهر النسائي الذى لا يمكن لواحدة غيرها أن تظهر به

عندئذ سمع صوت طبول وحركة غير اعتيادية صادرة من السارع ، لكن أندريه لم يسمع شيئاً ، لم يشعر بغير الشفتين تغدقان عليه من رجليهما المعسول ، وتردد أنفاسهما العذبة ، ودمهما الذى سال على خديها ، وشعرها المطر الذى أحاطه وغطاه بكامله بين لمان حريره الأسود

دخلت التتر في هذه البرهة وهي تجري وتصيح قائلة : « لقد نجونا ، نجونا ، لقد عاد رجالنا . لقد

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بألوانها الزينة

٥٠ السنة الأولى في مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة

والخامسة في مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش

في الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون

قرشاً في الخارج عن كل مجلد